

وفيما يتعلق بالصراع حول القدماء والمحدثين فإننا نجد الجاحظ يسلك سبيلاً وسطاً، ومثل هؤلاء النقاد يراهم الجاحظ مثلاً على الراوي الذي يجهل كنه ما يرفض من الشعر، موازنته بين الشاعرين المهلهل وأبي نواس وفيها يفضّل الأخير على الأول. فالمهلهل قد وصف هيبة مجلس أخيه كليب وسكوت الناس فيه بقوله: أودى الخیار من المعاشر كلهم واستبّ بعدك يا كليب المجلسُ ويعلق الجاحظ على ذلك بقوله أن أبيات أبي نواس في الحديث عن خبز إسماعيل وبخله به فيها من الحديث عن هيبة مجلس كليب أجود مما قاله المهلهل في بيتيه السابقين. على خُبزِ إسماعيل واقية البخلِ فقد حلّ في دار الأمان من الأكل وما خبزه إلا كعنقاء معرب تصوّر في بسطِ الملوك وفي المثل وما خبزه إلا كليب بن وائل ومن كان يحمي عزه منبت البقل وإذا هو لا يستب خصمان عنده ولا الصوت مرفوع بجد ولا هزل فإن خبز إسماعيل حل به الذي أصاب كليبا لم يكن ذاك عن بذل فانصاع كالكوكب في انحداره لفت المشير موهنا بناره شداً إذا أخصف في إحضاره خرّق أذنيه شبا أظفاره وقد أنشد الجاحظ الأرجوزة بتمامها ثم علل ذلك بأنه أورد رجز أبي نواس للقارئ في ذلك الباب لأن أبا نواس كان عالماً وراوية، ويقرر الجاحظ أن الناظر في شعر أبي نواس بعين الاعتبار لابد أن يفضل على غيره إلا إذا كان منساقاً وراء العصبية،